الإسلام في عيون متى الباريسي

محمد فوزي رحيل *

يعد متى الباريسي من كبار كتاب أوربا في القرن الثالث عشر الميلادي، وعلي الرغم من لقبه، ومن معرفته باللغة الفرنسية، كان إنجليزي المولد، لكنه ربما درس في باريس في شبابه بعد دراسته المبكرة في مدرسة دير القديس ألبان، وبالرغم من ذلك لا نعرف شيئاً عن تاريخ ميلاده أو عن سني حياته الأولي لكن يرجح أنه ولد بين عامي 1200م و1202م، وكل ما نعرفه عنه أنه في عام 1217م، سَلك سلك الرهبان في دير القديس ألبان، وكلف بالذهاب إلى النرويج للعمل علي إصلاح نظم الرهبنة والديرية هناك، وتوفى متى عام 1259م، وقد كون متى شبكة واسعة من الأصدقاء مابين الملوك ورجال الدين والبارونات وغيرهم، وهو ما ساعده في مدوناته التاريخية، حيث وفروا له الوثائق الرسمية وشهادات شهود العيان التي استقى منها مادة تاريخه الكبير . أما عن التاريخ الكبير Chronica Majora فقد بدأ متي الباريسي في تأليفه عام 638هـ (1240م). ونشر الكتاب بلغته اللاتينية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ضمن موسوعة المصادر الإنجليزية المعروفة باسم سلسة الفائف أو Rolls series.

ومن أهم سمات متى المؤرخ قدرته العالية على الوصف والحكي، وهو ما مكنه من تصوير معاصريه تصويراً قريبا من الحقيقة سواء في أفكارهم أو أهدافهم، غير أنه افتقد النظرة الكلية للأحداث، كما امتلك روحاً نقدية عالية لم تمنعه من نقد من أعجب بهم، فعلى سبيل المثال تعاطف كثيراً مع الملك هنري الثالث (1207-1272م) لكنه لم يتورع عن وصف الملك برجل الدولة غير القدير، فهو ربما يعجب بالرجل في جانب وينقده في جوانب ولا يمنع هذا من ذاك. ولم يخش مكانة ولا سطوة البابا أنوسنت الرابع (1234-1254م) فانتقد موقف البابا من الإمبراطور الألماني فردريك الثاني، حين أكد رفض البابا لمساعي الصلح التي بذلها فردريك، إذ قرر تحطيم مكانته ونفوذه حتى يكون عبرة لكل ملوك الغرب فلا يتجرأ أحد علي سلطانه بعد ذلك، وقال متى في هذا الصدد: "إن جشعه وحبه الشديد للمال هما السبب في كل هذه الكوارث... لقد أغشى المال على بصيرته – إن البابا هو المسؤول عن كل هذا القلق والاضطراب الحادث في العالم، ولم لا؟ لقد سار على خُطي قسطنطين، وترك درب القديسين".

أما عن مصادر الصورة التي رسمها للإسلام، فمن خلال المطالعة الدقيقة لهذه الصورة، نتبين أنه استقى هذه الصورة من اربعة مصادر: أما عن المصدر الأول من خلال التقارير التي كان يرسلها المبشرون إلى البابا في روما عن المسلمين وعقائدهم، وبالتالي كان البابا يرسل بفحواها كما يهوى إلى بقاع أوربا، أما المصدر الثاني رجال الدين الكاثوليك ذوي

المناصب في المغتصبات الصليبية في الساحل الشامي، الذين كانوا يرحلون إلى أوربا بصورة متوالية لأغراض شتى سواء الدعوة لحملة صليبية أو طلب العون المادي ومن بينهم معلم رهبان كنيسة القديس توماس في عكا. أما المصدر الثالث فلم يصرح به متى لكنه ظهر من خلال الصورة التي رسمها للإسلام وهى الرؤية الشعبية ذات الطابع الأسطوري التي انتشرت في أوربا على نطاق واسع في بداية القرن الثاني عشر الميلادي، أما المصدر الرابع فهو مصدر لم يصرح به متى أيضاً وهو كتابات اللاهوتيين الكاثوليك عن المسلمين، وقد ظهر ذلك في تفسيره للفظة السراكنة، وهو تفسير أخذ عن إيذدور الإشبيليIsidore of Seville (ت 663م).

أما عن غرض متى من رسم هذه الصورة، فقد أعرب عنه في بداية روايته حين قال: "حين نشرت إلى العالم وحوت العقيدة الزائفة عن جنون محمد نبي الإسلام فإنها أثارت حقد الجميع" أى أن هذه الصورة قد رسمت لشحذ همم الأوربيين ضد المسلمين ولم تجد وسائل الإعلام الغربية خير من نشوية سمعة نبي الإسلام حتى يكره الجميع الإسلام، فلا يبخلون على الحركة الصليبية لا بالنفس ولا بالمال. فى وقت اهتزت فيه ثقة الأوربيين بالبابوية مما أدى إلى تراجع أيديولوجية الحرب الصليبية.

بدأ متى الصورة بعبارة مليئة بالدلالات حول لقب المسلمين حيث يقول " يصر السراكنة على أنهم عرفوا بهذا الاسم نسبة إلى سارة لكن والحق يقال ينبغي أن يقال لهم الهاجرين نسبة إلى هاجر، وإسماعيليين نسبة إلى إسماعيل" ويبدو أن متى أو المبشرين الذين نقل عنهم، قد أرادوا أن يظهروا المسلمين بمظهر التحلل من نسبهم إلى السيدة هاجر ذات الأصول غير الحرة، وينتسبون إلى السيدة الحرة سارة زوجة الخليل ـ عليه السلام ـ التي كانت في الأصل سيدة لهاجر، وغرض متى من هذا الاستهلال هو التنويه بشعورٍ المسلمين بالنقص نتيجة أصولهم البعيدة غير الحرة كما يتخيل، مما يكون نزوعا سلبياً تجاه المسلمين لدى الأوربيين حين يطلعون على كتاب التاريخ الكبير. أما لقب السراكنة فهو مصطلح شائع في الكتابات الغربية في العصور الوسطى للدلالة على المسلمين-، ويبدو أن متى في هذا التفسير والشرح قد تأثر بإيذدور الإشبيلي الذي يعزى إليه هذا التفسير، الذي تواتر لدى المؤرخين الأوربيين ولم يشذ عنهم متى. ومهما يكن من أمر فالإسلام لا يعول على عرق ولا نسب، ولكن يعول على العمل، وذلك بنص القرآن والسنة، كما أن معظم المسلمين في ذلك العصر لم يكونوا عربا فقط بل أيضا فرس وهنود وبربر وقبط ومن سائر أجناس الأرض التي دخلت في حوزة المسلمين واعتنق أهلها الإسلام بنسب متفاوتة.

ومن أبرز سمات الصورة التي رسمها متى النقل الانتقائي من المصادر الإسلامية بما يحقق الغرض الذي من أجله رسم الصورة وهو إثارة حقد الأوربيين ضد الإسلام، وفي هذا الإطار يأتي نسب الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فمما ذكره متى أن " إسماعيل، الذي أنجبه إبراهيم من أمته هاجر، ومن إسماعيل ولد أبنائه: قيذار، ويشجب، يعرب، تيرح، تاحور، مقوم، أدد، عدنان، معد، نزار، مضر، إلياس، مدركة، خزيمة،

كنانة، النضر، مالك، فهر، غالب، لؤي، كعب، مرة، كلاب، قصي، وعبد مناف، وهاشم، وعبد المطلب، والذي أنجب، عبد الله، والد سيدنا محمد' والحقيقة أن كل ما قاله متى عن شجرة نسب الرسول محمد مطابق تماماً لما ورد في كتب السيرة النبوية وفي مقدمتها سيرة ابن هشام.

أما الدليل الثاني: على إطلاع متى أو من أخذ عنه الصورة التي قدمها للأوربيين فهو خبر عن عيسى ـ عليه السلام ـ وإحيائه يافث بن نوح لسؤاله عن السفينة، فهذه الرواية مأخوذة بنصها من تاريخ الطبري ونقله عنه ابن كثير وعلق عليه بغرابة سندها وعدم الوثوق به.

والدليل الثالث: على هذا النقل خبر هجرته ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة المنورة فقد وصفها متى وصفاً دقيقاً، حين وصفها أنها مدينة في الصحراء، شطر سكانها من اليهود والآخر من الكفار الوثنيين، ووصف جل سكان المدينة بالجهل والبساطة وهو ما وفر التربة الخصبة لنشر الإسلام من وجهة نظر متى وهو وصف طالما وصف به المسلمون، وهناك بنى معبداً لنشر عقائده المزيفة بين البسطاء. والحقيقة أن إطلاق اسم المعبد علي دار عبادة المسلمين التي عرفها العالم أجمع باسم المسجد يوحي بإصرار متى ومصادره التي اعتمد عليها علي وصف الإسلام بالوثنية تأكيداً لزيف الاسم في اعتقاده أو كما أراد أن يراه الغربيين ممن سوف يطلعون على كتابه، في وقت لا ينكر فيه أن أوربا صار لديها معارف لا بأس بها عن الإسلام في ظل الاتصال الكثيف بين العالم الإسلامي والغرب الأوربي في ظل الحركة الصليبية، ناهيك عن التواجد الإسلامي في الأندلس منذ أواخر القرن الأول الهجري.

أما الجانب الثالث من الصورة التي رسمها متى للإسلام فتهدف إلى التشكيك بل نكران نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وشمل هذا الجانب الكثير من النقاط ليحقق بها غايته:
أولها: إظهار محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في صورة الانتهازي الباحث عن الثروة الذي ألقى حبائله وتزوج من واحدة من ثريات قريش ليستطيل بمالها على أهل مكة، بل ودفعه غنى زوجته إلى التسامي لطلب الملك، غير أنه لم يفعل بسبب معارضة من هم أكثر نبالة منه وقوة في الشخصية، وعند ذلك قال أنه نبي ويجب علي الناس أن تتبعه.

وهذا كله يجاف الحقيقة ويبدو أن المبشرين الذين نقلوا نسب الرسول بكل دقة قد سأهم أن ينقلوا باقي أحداث السيرة النبوية بنفس الدقة، ومن ثم أخذوا في تلفيق النصوص لا لشيء سوي لتشويه سيرة رجل ذهبوا ليحولوا الناس عن دينه، ومن ثم جافوا الحقيقة وقالوا ما قالوه بدلا من أن يكرروا ما رأوا، أو روي لهم عن الدعوة الإسلامية وما عانه الرسول في سبيل نشر دعوته وما لاقاه من قومه، وبدلا من ذكر حقيقة عرض قريش الملك عليه ليتخلى عن دينه، ورفضه القاطع لذلك، كما ذكرت كتب السيرة ومن أراد فليرجع إلى كتب السيرة التي ذكرت أنه قد قالوا له " أن كنت جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لكم أموالنا، حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا،

سودناك علينا، وإن كنت تريد به ملكا، ملكناك علينا" بدلا من ذكر كل ذلك ذكروا أنه سما، للملك لكنه خشي بسبب وضاعة نسبه، وهو ما يجافي الحقيقة فحين نزل القرآن علي النبي، لم يكن ينقصه الشرف فهو حفيد سيد قريش، الذي ذكر متى نفسه أن جده كان رعيا للكعبة.

ومهما يكن من أمر فقد كان متى في صورته أقل أسطورية من جيوبرت أوف نوجنت الذي ادعى أن مهرطقاً مسيحياً قد ملأ عقل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالسموم والعقائد الفاسدة، لكنه كان قليل المال مما أعاقه عن نشر أفكاره فبدأ يجمع المال من كل مقصد، ثم أراد المهرطق أن يزيد من قوته فاستغل ترمل خديجة رضي الله عنها وزين محمد في نظرها حتى اقتنعت به زوجاً، وبهذا الزوج حاز الثروة والرفعة، فادعى الوحي والنبوة واجتمع الناس حوله. ويرجح أن يكون هذا المهرطق هو ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة.

أما **الأمر الثاني:** الذي أراد به أن يشكك في نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فهو نوعية المؤمنين به، فذكر أن من آمن بالرسول هم الجاهلين الفقراء الذين لم يروا من قبل نبياً بجانب المحرومين كنسياً، بالإضافة إلى قطاع الطرق واللصوص بدلاً من أن يشيروا إلى من اعتنق الإسلام من كبار سادة قريش وعقلائهم مثل أبو بكر الصديق وعثمان بن عفان وعمر بن الخطاب، وحين تحدث عن المؤمنين بالنبي في يثرب كذلك وصفهم بالجهل والبساطة وهو ما وفر التربة الخصبة لنشر الإسلام ـ من وجهة نظر متى ـ وهو وصف طالما وصف به المسلمون. ولم يهتم الناقل بخبر أعيان يثرب وعلماء اليهود الذين اعتنقوا الإسلام، قبل وبعد الهجرة.

أما **الأمر الثالث:** الذي أراد به متى أن يشكك في نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فهو اتهام النبي باللصوصية والاعتداء على التجار قبل الهجرة من مكة وبعدها، ففي مكة اتهم النبي بسرقة أبى جهل، وفي المدينة، اعتبر السرايا وغزوات النبي نوع من اللصوصية الهادفة إلي نهب التجار، وفي هذا السياق أعطى ستة أمثلة على هذه اللصوصية التي فشل فيها محمداً جميعا. والحقيقة أن هذا الأمر يوضح سوء مقصد متى أو من نقل عنه، فلم يهتم بأن يذكر أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد لقب بالصادق الأمين في مكة، وأن أمانات أهل مكة، الكافر منهم قبل المؤمن كانت في بيته ليلة هجرته، وكان يستطيع أن يفر ببعضها، ولو فعل ما لامه أحد بعد أن جرد أصحابه حال هجرتهم من أموالهم ومن بين من جردوهم أناس كان لهم أمانات لدى الرسول، لكنه لم يخنهم وترك على بن أي طالب (رضي الله عنه) ليرد ذلك إليهم، أما في شأن الغزوات والسرايا فقد خلط متى خلطاً رهيباً بين أحداثها ورجالها ومواضعها ونتائجها بشكل يربك القارىء فلا يخرج بشيء منها، إلا أن يزداد حقداً على صاحب هذه السيرة وعلى الدين الذي يدعو إليه.

ورابع الأمور: التي أراد بها متى أن يشكك في نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو عدم تنبأه بما يمكن أن يقع له من السوء، وهذا لدى متى أمر عظيم فكيف يكون نبي ويهزم

في المعارك، وكيف يكون نبي ويصاب في وتكسر أسنانه وفكه – إشارة إلى ما وقع في غزوة أحد -، وكيف يكون نبى ولا تساعده الملائكة، وعلى حد زعمه أن المسلمين يدعون أن النبي كان معه عشرة ملائكة لخدمته فيسائل لماذا لا يمنعونه. والحقيقة أن الاعتماد على كتب السيرة التي لم تترك صغيرة ولا كبيرة في حياة الرسول إلا وأحصتها - هي من أوثق المصادر وأصدقها عن سيرة رجل في التاريخ إذا ما قورنت بغيرها من سير المشاهير- توضح أن النبي في كل غزواته كان يتصرف ببشريته وليس بمساعدة من السماء – وإن لم يمنع ذلك حدوث بعض المعجزات كانت في خدمة المسلمين- فحين يأخذ بالأسباب ينتصر وحين يتخاذل المحيطون به ولا يأخذوا بهذه الأسباب يهزم المسلمين، كما حدث في سائر الغزوات، التي انتصروا فيها أو كسروا في غيرها، ولو قال النبي أنه يعلم الغيب لصار مناقضاً للكتاب الذي أرسله الله به والذي نص على ذلك، وهذا الاتهام اتهمه به رافضو دعوته، فأوضح لهم كما جاء في القرآن أنه لا يعلم الغيب ولو علمه ما مسه السوء، إذن هذا السوء الذي تعرض له هو دليل صدق رسالته.

أما خامس الأمور: فهى شهوانية محمد - صلى الله عليه وسلم - وزناه فحتى تزداد الصورة قتامة اتهموا النبي بالزنى وبالشهوانية، بل والطمع في نساء أتباعه، ظلماً وزورا، وحتى تسبك الصورة اتجهوا إلى الخلط بين حدثين بعيدين عن بعضهما تماماً، الأول هو زواج الرسول بالسيدة زينب بنت جحش والثاني حديث الإفك الذي تعرضت له السيدة عائشة، فالرواية تصور النبي بالشهواني وعلم أصحاب النبي بذلك لدرجة أنهم كانوا يخفون عنه زوجاتهم حتى لا يطمع فيهن، فهذا زيد بن حارثة يأمر زوجته بالاختفاء عن عين النبي حتى لا يأخذها منه، لكن النبي حين رآها تنازل عنها زيداً على الفور فأخذها النبي وتزجها زاعماً أنه أمر من السماء، وحتى تبقى الرواية في ظاهرها سليمة لم تذكر أن زوجة زيد هذه هي ابنة عمة النبي وهو الذي زوجها من تابعة وأن القرآن قد أمر النبي بالزواج منها لحكمة إلغاء عرف التبني عند العرب التي كانت شائعة منذ زمن بعيد، وحبكاً للرواية أظهر متى علي بن أبي طالب بمظهر الرافض لفعل نبيه موضحاً له أنه يسيء إلى سمعته بارتباطه بهذه السيدة. وهكذا يخلط متى بين عناصر السيرة لتصوير الإسلام في صورة مشوهة. أما زوجات النبي فقد اختلط الأمر لدى الراوي أو هكذا أراد، فقد ادعى أن زوجات النبي كن خمسة عشرة زوجة، وأن النبي كان له زوجتان من الحرائر والباقي من الإماء، ثم أخذ في الرواية لذكر نساء النبي بخلط واضح بين الأسماء والأحداث.

ولو كان النبي شهوانياً كما يقول متى أو من نقل عنه لتزوج قبل الخامسة والعشرين من عمره، أو لصار من رواد بيوت صويحبات الرايات التي كانت تجارة رائجة في مجتمع الجاهلية حتى أن الرسول -- صلى الله عليه وسلم - - يفتخر أنه ولد من نكاح أي زواج شرعي ولم يولد من سفاح أي بشكل غير شرعي، وهو ما يوضح مدى تفشي هذا الداء في مجتمع ما قبل الإسلام، ولو كان النبي شهواني لأقبل على زواج البكر بدل من الثيب ذات الأولاد، كما أنه لم يتزوج عليها في حياتها، وحين توفيت كان قد صار في الخمسين من

عمره ولم يعد للشهوة الجامحة نصيب، وحين تزوج هذه المرة لم يتزوج ببكر بل ثيب وهى السيدة زمعة، ليؤنس وحدتها ويرعى عيالها وترعى عياله، ولم تكن أم المؤمنين زمعة هذه ذات جمال أو نسب أو مال، بل فقيرة ذات عيال، كما أنه لم يتزوج ببكر خلا عائشة بنت أبى بكرن أما باقي نسائه فقد كان لكل لزواجه بكل واحدة منهن مبرر، إما لتشريع مثل زينب بنت جحش، والحديث يطول عن زوجات النبي ومبررات زواجه بهن وهذا ليس مقام التفصيل بل الأجمال.

أما **الأمر السادس:** والأخير الذي أراد متى أن يشكك به في صحة نبوة الرسول فهو موت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودفنه، فقد ذكر أنه قد سم في فخذ شاه على يد امرأة تسمى زينب، وعند الأكل نطق الزراع بأنه مسموم، وبعد ثمانية عشر عاماً كما تقول الرواية مات الرسول مسوماً، وتكمل الرواية وتقول لو كان نبياً حقاً لأنقذ نفسه من السم. وبادىء ذى بدء هذه الرواية بها بعض من الحقيقية فاسم المراة التي قدت الشاه المسمومة زينب بنت الحارث بالفعل ونطق الزراع بعد أن لاك النبي قطعة منه في فمه أما تابعه بشر بن البراء فقد أسرع في الأكل فقضى نحبه بسبب شدة السم، أما وفاته فلم تكن بعد ثمانية عشر عاماً كما ذكر بل بعد أربع سنوات فقط، فقد فتحت خيبر التي حدثت فيها الحادثة عام 7هـ وتوفى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عام 11هـ بسبب الحمى.

والغريب أن متى قد أدعى أدعاء غاية في الغرابة عن وفاة الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وهو أنه حين حضرته الوفاة وتيقن أنه مرض الموت، طلب من أصحابه أن يتركوه ولا يدفنوه لأنه يرتفع إلى السماء، ولما بقى أيام مكانه ولم يصعد إلى السماء دفنه المسلمون بعدما تبينوا كذبه' وهذا كذب واضح فلم يصح أن النبي أدعى أنه سوف يرتفع إلى السماء لكنه أوصى أن يدفن في مكان وفاته ليس أكثر. ويبدو أن متى قد أراد أن يزيد الصورة قتامة، فأكد في موضع أخر غير موضع رواية الشاة المسمومة أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أصابه الصرع قبل وفاته ووقع على الأرض وحيداً بعيد عن أصحابه، بين الموت والحياة ولم يكتشفه سوى خنزيرة مع ص غارها الجائعة فتكالبوا عليه فخنقوهن ومن يومها يكره المسلمين الخنازير. ومن الواضح هنا أن هذه الرواية عادت للتأثر بالرواية الشعبية التي اعتمد عليها جيوبرت أوف نوجنت والتي حكت خبر وفاة الرسول بشيء مشابه لكنها زادت على ذلك أن الخنازير قد أكلته ولم يبقى منه سوى نعليه فكتب جيوبرت مرثية لهذين النعلين.

أما **الجانب الرابع:** من الصورة التي رسمها متى للإسلام فقد ركزت على تعاليم الإسلام وشرائعه، فقد أقر متى بأن المسلمين يعبدون إلها واحدا، غير أنهم لا يؤمنون بالثالوث المسيحي، ولا يعبدون الأصنام، وفى هذا الاعتقاد يتفق متى مع عدد من كتاب الغرب ومؤرخيهم مثل راؤل جربت وجيوبرت أوف نوجانت، وأوتو الفريزي، الذين أقروا بعدم وثنية المسلمين، وبالرغم من ذلك قبل متى خبر نقله إليه متى رئيس دير القديس توماس في عكا، بان برقاً نزل من السماء واحرق معبد محمد وأحرق تمثاله، وهذا ولا ريب

انتكاسة في فهم عقائد المسلمين عن قصد يتفق فيها مع من اتهموا المسلمين بالوثنية مثل مؤلف أنشودة رولان وفوشيه الشارتري، ووليم الصوري، ولم يكلف متى نفسه عناء نقد ذلك فلماذا يعترف بكراهية المسلمين للوثنية ثم يسكت عن وجود صنم لمحمد، والأمر عندي أنه لا بأس لدى متى بذكر أي خبر ولو كان مكذوباً مادام يحقق الغاية التي من أجلها كتب ودون أخبار المسلمين وهى إثارة أحقاد الأوربيين ضدهم.

فقد أكد متى أن نبي الإسلام كان مدع للنبوة، وأنه لم يكن نبياً حقاً، ومن ثم عاقبه الرب بإصابته بالصرع، وحين سئل عن ذلك قال لأتباعه: إن ذلك هو الوحي ينزل عليه من السماء علي يد جبريل كبير الملائكة، وما يحدث من صرع يأتي نتيجة عجز البنية البشرية عن تحمل عظمة الملك جبريل، وهذا التفسير لنزول الوحي لا يبعد كثيراً عن تفسير جيوبرت الشعبي، ففي حادث نزول الوحي ادعى جيوبرت أن (محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ) قد أصيب بالصرع وهو ما جعل خديجة تتحسر على قبوله زوجاً، ومن ثم هرعت إلى الناسك المهرطق، الذي زين لها محمد زوجاً، تلومه على هذه الزيجة، فتمكن هذا المهرطق أن يقنعها أن هذه هي علامات النبوة، نتيجة عدم تمكن الجسد البشري من تحمل وطأة الملك الموكل بالوحي، ومن هنا تحول غضب خديجة إلى سرور بكونها زوجة نبي. وهذه كله عار من الصحة فلم يؤثر أن النبي صرع في أي من مرات نزول الوحي، وما أصابه عند نزول الوحي لم يكن أكثر من رعدة لرؤية جبريل للمرة الأولى، لكن النبى لم يغب عن الوعي ولم يصرع.

أما في شأن **القرآن** بحكم كونه كتاب المسلمين المقدس، فقد نظر متى إليه على أنه وحى من الشيطان كتبه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخلط فيه بين الحق والباطل، بان اخذ من التوراة والإنجيل القليل وأضاف إليهما الكثير ليكون كمن يدس السم في العسل على حد زعمه، بالرغم من إقرار متى بضرورة إيمان المسلم بالكتب المقدسة السابقة وهى التوراة والإنجيل، لكنه متى فهم خطأ أن هذا الإقرار يوضح أن المسلمين لا يعترفون إلا بثلاثة أنبياء وهم موسى وعيسى ومحمد، وهذا عار من الصحة ولا يحتاج إلى تأكيد على خطأه.

أما في شأن **العبادات** الإسلامية فقد انتقد متى بشدة متى عقيدة المسلم في الصيام الذي يبدأ من مطلع الفجر حتى غروب الشمس، لكنه يستنكر امتناع الرجال عن النساء فى حال الصيام واعتبار المسلمين أن ذلك مرضاة لله، وأكد أن الرجال يكثرون من جماع نسائهم في الليل، كما يغضبه أن يوجد مبيحات للفطر في أحوال المرض والسفر والحج أو غيرها من مبيحات الفطر حال صيام الفرض، ويستنكر أكل المسلمين كل شيء عقب الإفطار خلا الخمر، ولم يلفت نظره شيء في صلاة المسلم سوى الوضوء واتجاه القبلة، ففيما يخص الأول فقد اعتبره من تأثيرات الإنجيل، وهو لديه ضرب من ضروب المعمودية، أما القبلة فقد ذكر أنها إلى الجنوب وأن يوم الجمعة فهو لدى المسلمين يوم مقدس أكثر من أي يوم آخر كما ذكر متى، ولم يلتفت إلى اختلاف القبلة باختلاف الموضع الجغرافي نحو الكعبة. وفيما عدا فريضتا الصيام والصلاة فلم يعر باقي الفروض اهتماماً.

كما أقر متى باعتقاد المسلم بيوم أخر يجمع فيه الناس لفصل الخطاب، ويستشهد على ذلك برواية غريبة يقال أن النبي قد رواها عن عيسى ـ عليه السلام ـ ليؤمن المسلمون بأن هناك حياة آخرة، نقلت بنصها من تاريخ الطبري وعلق عليها ابن كثير بضعف رواتها وانعدام مصدرها، وهى قصة استدعاء يافث ابن نوح ـ عليه السلام ـ من عالم الأموات، وهو الذي مات في شبابه فقام بناء علي الرواية وقد شاب من اتقاده بأن القيامة قد قامت ولا يعجب متى أن يؤمن المسلم بأن النية مقدمة على العمل، وأن النية الطيبة ربما تصل بصاحبها إلى أعلى الدرجات.

كما عرض لشريعة تعدد الزوجات لدى المسلمين موضحاً أن من حق المسلم القادر على الجمع بين ثلاث أو أربع نساء، بجانب عدد لا محدود من الجواري قدر استطاعته، عاقداً مقارنة بين عقيدة الزواج عند المسلمين وعقيدة الزواج عند المسيحيين مورداً أية من سفر التكوين وهى "هناك سيكون اثنان في جسد واحد" مواصلاً المقارنة بالتأكيد على عقاب الرب لمن بدأ بتعدد الزوجات. كما ينكر على المسلمين أمر الطلاق في حالة استحالة العشرة، كما ينكر عدم وجود قاعدة للمهور في الإسلام· وقد استهجن متى هذا التعدد لأنه يحقق غاية وهدف سعى من ورائه نبي الإسلام وهو كثرة وزيادة عدد المسلمين، ووصل به الأمر إلى الادعاء بأن من يكون قادراً ولا يتخذ عدد من الزوجات تعاقبه حكومة المسلمين، ويقدم متى مبرراً أدعى أنه سبب عدم وجود رهبنة في الإسلام وهو أن المسلم يعتقد كما أمره نبيه أن الله لم يخلق أدم وحده لكنه خلق معه حواء لعمران الأرض، وتعدد الزوجات يحقق هذه الغاية، ثم يعود، للكتاب المقدس ويوضح أن الرب قد عاقب من فعل فعل المسلمين في الزمن الغابر بتعدد الزوجات، بإغراق الأرض في طوفان نوح ـ عليه السلام ـ الشهير.

وقد أبت نفس متى أو من أخذ عنه أن يوضح أنه بالرغم من وجود هذا التشريع الذي يحل الزواج بأكثر من واحدة له قيود منها العدالة بين الزوجات، وأن المجتمع الإسلامي معظم رجاله يكتفون بزوجة واحدة كما اقر أرنولد بورشارد عندما زار بلاط صلاح الدين.

كما شدد النكير على اعتقاد المسلمين برفعة نبيهم عند رب العالمين، وأن من يتمسك بدين الإسلام ويلتزم به سوف ينجو في الآخرة ويدخل الجنة، بشفاعة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، والجنة كثير اللبن والعسل والخمر حيث ينعم كل مسلم بالنعيم المقيم ويحصل كل مسلم على ما حرم منه في الدنيا، وأنهم لا يحزنون فيها بل نعيم مقيم ومسرات غير محدودة، وختم هذه النقطة بتوضيح أن المسلمين يؤمنون أن الثراء والغنى ومتع الحياة الأرضية لن تمنع سعادتهم الأخروية. والحقيقة أن كل ما وصفه متى في هذا الجانب في محله كما ورد في القرآن والسنة غير انه لم يشر في عبارته الأخيرة أن هذا الأمر مشروط بإنفاق الأموال في محلها وأداء زكاتها.

وفيما يتعلق بصورة العقوبات في الإسلام لدى متى فقد عرض لجريمتين أولوهما عقوبة

القتل لمن يقتل بعد سماع الشهود وتأكد ارتكابه لهذه الجريمة، أما الجريمة الثانية فهي جريمة الارتداد ومن يفعل يستتاب ويعطى فرصة ثلاثة أيام لمراجعة نفسه فإن أصر يقتل. ولم يبتعد متى كثيراً عن حقيقة عقاب هاتين الجريمتين، اللتين لو تفشيتا دون رادع أو مانع لعرضا استقرار المجتمع الإسلامي للاستقرار، غير أن متى لم يدرك قانون الدية الذي يعطي صاحب الدم حق العفو مقابل الدية او القصاص، كما أن عقوبة المرتد في حد ذاتها رادعاً لكل من يريد أن يتظاهر بالإسلام لتحقيق غرض بعينه من اعتناق الإسلام ثم يعود إلى دينه الأصلي بعد أن يكون قد اطلع على عورات المسلمين.

وفيما يتعلق باعتقاد المسلمين في عيسى ـ عليه السلام ـ يستهجن متى اعتقاد المسلمين في بشريته وأنه قد حملت به أمه، وهو لدى المسلمين من أعظم الأنبياء، كما يؤمنون بأنه رفع حياً إلى السماء ويتوقع أن يعود إلى الأرض مرة أخرى، وأنه لم يصلب، وإنما صلب غيره وأن الأناجيل الموجودة في يد النصارى محرفة. وهذه الرواية في مجملها تتفق بالفعل مع ما يعتقده المسلمون في عيسى ـ عليه السلام ـ، وما ورد في القرآن والسنة، كما يعتقد كل مسلم أن عيسى ـ عليه السلام ـ من أولو العزم من الرسل الذين هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد.

وبعد وصف الإسلام ونبيه بكل نقيصة حار متى أمام سرعة انتشار الإسلام فاختلق الحجج والمزاعم، وقدم عدة أسباب وقفت وراء انتشار الإسلام، أولها: تملق خلفاء النبي وتلونهم حتى خدعوا الناس بعقيدة النبي، ثانيها: القوة لرد المرتدين إلى الإسلام، ثالثها: متع الدنيا التي قدمها الخلفاء للناس، ويشدد متى على أن الترف والمتعة كانتا سبباً أساسياً في انتشار الإسلام في بقاع العالم البعيد حتى لا يلتزموا بشرع المسيحية التقشفي، فكان خيرا لهم أن يتحولوا إلى الوثنية الإسلامية في زعمه بعد أن أعمتهم متع الدنيا وزينتها، أما السبب الرابع: فهو أحد رجال الدين المسيحي المحرومين الذي حقد علي المسيحية بعد حرمانه فقرر عقاب المسيحيين فانتقل إلى ديار الإسلام وتعاون مع عم النبي ـ لا ندري اي عم هو ـ وعلمه العهدين القديم ومنه أخذ كثر من الكتب المقدسة السابقة وأدمجها في الإسلام، بل بأفكاره استطاع إقناع كثير من العرب بالسلام وإذا كان متى في السابق يصور صوراً مشوهة مستقاة من خلط السيرة ببعضها فهو هنا يختلق الأفكار اختلاقاً ويستكثر علي المسلمين أن يتمكنوا من تلقاء أنفسهم من جراء تطوير الإسلام لهم أن يؤسسوا حضارة مستقرة وبالتالي اعتمدوا علي غيرهم من أهل الذمة وهو حط من شأن العرب وإن لم يصرح.

كما لم يفت متى في صورته أن يلمح إلى مشكلة الخلافة الإسلامية، فأشار إلى أن علي بن أبي طالب وهو زوج ابنة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد سمت نفسه إلى الملك من بعد حماه، لكن أبى بكر حرمه من مسعاه لا لشيء سوى المكسب والشرف الدنيوي. وهنا يأبى متى ألا يدع شيئاً في الإسلام إلا شوهه، فكما شوه سيرة الرسول أبى إلا أن يشوه سمعة خلفائه، فاتهم أبي بكر بالسعي للخلافة للمكسب، وفاته أو تعمد أن يخبر أن هذا الخليفة كان يتقاضى مرتباً محدوداً، مثل راتب عامة المسلمين وعطائهم من بيت المال،

فلما حضرته الوفاة لم يكن في بيته ديناراً ولا درهما، ولم يترك سوى خادما وناقة وإناء للحليب حتى قال عمر: يرحم الله أبا بكر لقد أتعب من جاء بعده.

ومهما يكن من أمر فقد كانت هذه هي الصورة التي رسمها متى ل لإسلام نبياً وعقيدة، وكما ذكرنا فقد قامت هذه الصورة على النقل المشوه من المصادر الإسلامية لتحقيق الغرض الأساسي الذي كتبت من اجله ألا وهو إثارة حقد الأوربيين ضد هذا الدين وأتباعه فينطلقون أفواجاً إلى قتالهم. ولم يرد متى أن يظهر شيئاً من حسن الإسلام إلا بقدر ما يحقق غرضه وهو دس السم في العسل كما ادعى هو ضد نبي الإسلام، حتى أنكر رحمته ورفقه بالناس وما تركه من تعاليم للحرية الدينية بناء على أوامر الله التي وردت في القرآن " لا أكراه في الدين"، ولا ما تركه من تعاليم لتنظيم حياة المسلمين فيما بينهم، ولا ما تركه من تعاليم في شتى مناحي الحياة مكنت المسلمين من إقامة حضارة زاهرة نهلت أوربا منها لقرون عديدة.

ومهما يكن من أمر فهذه الصورة تعبر عن منحى جديد في التعامل مع الشرق الإسلامى، تمثل هذا التحول في الاتجاه إلى نشر المسيحية الكاثوليكية بين المسلمين، وهذا الأمر لم يكن مطروحا في بداية الغزو الصليبي للمنطقة العربية ذلك أن الإبادة وإحلال الكاثوليك الغربيين محل الشرقيين مسلمين كانوا أم مسيحيين شرقيين، غير أن هذه الأيديولوجية الدموية لم تفلح، واستطاع صلاح الدين عقب حطين الاطاحة بمملكة بيت المقدس، كما لم تفلح الحملة الصليبية الثالثة وانتهت بتوقيع صلح الرملة مع صلاح الدين 588هـ (1192م) بالرغم من ضخامة الإعداد والتموين ونوع القادة من تغيير الواقع كثيراً، كما انحرفت الحملة الصليبية الرابعة عن وجهتها مصر وتحولت للقسطنطينية عام 1204، ولم تغير الحملة الصليبية الخامسة على مصر 1219م شيء من الواقع، أما الحملة السادسة بقيادة الإمبراطور فردريك الثاني فلم توصف بالصليبية في نظر المعاصريين نظرا لحرمان الإمبراطور ومنافسته للبابوية، كل هذه الأمور ألقت ظلالا من الشك حول مستقبل الحروب الصليبية، التى تحولت إلى قلب أوربا ببداية بالقسطنطينية ثم الهراطقة الألبجنيسيين ثم إلى الإمبراطور فردريك الثانى أقوي ملوك أوربا، ومن هنا شجعت الباباوية الحركة التبشيرية ومنحت القائمين عليها الكثير من المزايا، لتشجيع هذه الحركة.

غير أن هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح بشكل واضح فعاودت البابوية تحريك الدعاية للحرب الصليبية داخل أوربا من خلال نشر تقارير عن الإسلام ومبادئة لإثارة أحقاد الأوربيين ضدهم ومن هذه التقارير رسم متى هذه الصورة التي قدمنا لها.

****

الحواشي:

*) باحث وأكاديمي من مصر.

المصادر والمراجع المعتمدة:

المصادر العربية:

- القرآن الكريم.
- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 10، دار صادر، بيروت، 1967م.
- ابن إسحاق بن العباس، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، جـ2، بيروت، 1414هـ.
- أبي الربيع الأندلسي، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والسادة الخلفاء، جـ1، تحقيق د.محمد كما الدين عز الدين علي بيروت، 1997م.
- ابن برهان الحلبي، السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، جـ1، ص387، 1400م.
- ابن حجر، الإصابة في معرفة الصحابة، جـ7، تحقيق على محمد البجاوي، بيروت، 1412هـ.
- الحريري، الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين، ضمن الموسوعة الشامية، جـ23، تحقيق د.سهيل زكار، دمشق، 1995م.
- الزبير بن بكار، المنتخب من كتاب زوجات النبي، تحقيق سكينة الشهابي، بيروت، 1403هـ.
- ابن سعد، الطبقات، ج3، تحقيق د.علي محمد عمير، 2001م.
- السخاوي، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، جـ1، بيروت، 1993م
- الطبري، تاريخ الطبري، جـ1، بيروت، 1407هـ.
- ابن عبد البر، الاستعاب في معرفة الأصحاب، جـ4، تحقيق علي محمد البجاوي، بيروت، 1412هـ، ص1919.

ابن هشام، السيرة النبوية، جـ1، القاهرة، 1993م.

المراجع العربية:

- جوزيف نسيم، العدوان الصليبي علي مصر، القاهرة، 1969م، ص7؛ .العدوان الصليبي على بلاد الشام، القاهرة، 1971
- عبد الصبور مرزوق، تعدد زوجات النبي، ضمن كتاب، حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، إشراف د.محمود حمدي زقزوق، القاهرة، 2002م.
- محمد فوزي، مملكة عكا الصليبية دراسة لعوامل الانهيار والسقوط، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة عين شمس، 2008م.

المصادر الأجنبية:

- Amadi, Chronique D'amadi, Publiees par De Mas Latrie, Paris, 1861.

- Mattew parisiensis, Chronica Majora, 7 vols., Rolls Series, Edited by H R. Luard, London, 1872.

المراجع الأجنبية:

- Vanghan, (Richard), Matthew Paris, Cambridge, 1958

- Tolan (John), Saracens, in The Crusades An Encyclopedia, ed. By Alan V. Murray, Oxford, 2006.

- Maier (Christoph), Preaching the Crusades Mendicant friar and the cross in the thirteen century, Cambridge, 1997.

- Nicolle (David), Hattin 1187 Saladin Greatest Victory, Oxford, 2005.